ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قلنا : يبسط يعنى يُوسِّع . ويقدر يعنى : يُضيق ، وقد ورد هذا المعنى قبل عدة آيات ، لكن هنا يضيف لفتة جديدة ، فيقول سبحانه بعدها مباشرة ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سبأ] وكأن الحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى أن الخَلْق جميعاً خَلْقه وعباده ، وهو قادر سبحانه أنْ يعطى الجميع ، وأنْ يُوسِّع على الجميع ، لكن يريد أنْ يتحابَّ الخَلْق ، وأنْ يتكافل الناس ؛ لذلك وسَّع على بعضهم ، وضَيَّق على بعضهم ، ثم أشار لمن وسَّع عليه ولوَّح له بجزاء الإنفاق ، لينفق على أخيه الذى ضُيِّق عليه .

وهذه الآية تعطينا ملخصاً لاقتصاد العالم كله ؛ لأن معنى الاقتصاد موازنة المصروفات بالواردات ، فالمصروفات لمصروف له ، والواردات لوارد عليه ، إذن : لا بُدَّ أن يكون فى المكان الواحد فئة تعطى وفئة تأخذ ، لا بُدَّ أنْ يكون فيها فقراء وأغنياء ، لذلك الحق سبحانه لم يترك بَسْطة الغنى هكذا حرة ، كذلك لم يترك تقتير الفقير، بل جعل لهذا مَبْذلاً ، ولهذا مصدراً .

فبعد أن أخبر سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سبأ] حكمها فقال : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سبأ] فالحق سبحانه يراعى مبدأ النفعية لصاحب المال ، ويراعى

حب الأغنياء للمال ؛ لذلك يطمئنهم على أموالهم ، ويتكفّل هو سبحانه بأنْ يخلفها لهم .

والحق سبحانه بسط الرزق للأغنياء وهم يحبون المال ولكنه يقول لهم : إذا أُحلْت على غنى فاتبع ، يعنى : إنْ كان لك دَيْن عند فقير فأحالك بدينك إلى غنى قادر على السداد فتحوَّل ؛ لأنك لا تضمن متى سيُوسِّع الله على الفقير ليُسدِّد ما عليه .

وهكذا طمأن اللهُ الأغنياءَ بأنّ أموالهم لن تنقص بالإنفاق ؛ لأنها أحيلت إلى الله وتكفَّل هو بالسداد .

لذلك يعلمنا رسول الله ﷺ فيقول : « ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيْتَ ، أو لبستَ فأبليْتَ ، أو تصدقْتَ فأبقيْتَ »(١)

ولما أُهديَتْ لرسول الله ﷺ شاة تصدَّقَتْ بها السيدة عائشة ، وأبقَتْ لرسول الله كتفها ؛ لأنها تعلم أنه يحب الكتف ، فلما عاد رسول الله سألها : ماذا صنعت بالشاة يا عائشة ؟ قالت : ذهبتْ كلُّها إلا كتفها ، فقال ﷺ : « بل بقيَتْ كلها إلا كتفها »(٢)

لماذا ؟ لأنه مال تحوَّل إلى ذمة الله ، وقد تعهد الله بأنْ يُخلفه ، وما بالك إنْ كان الإخلاف من الله القائل : ﴿وإذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٢٤، ٢٦) ، ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) كتاب الزهد ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه . ولفظ الحديث عند مسلم : « يقول ابن آدم : مالى مالى ، قال : وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة . قال الترمذى : حديث صحيح . ولفظ أحمد أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ما بقى إلا كتفها . قال : « كلها قد بقى إلا كتفها » .

وأنت حييْتَ الله فى الفقير بتحية فلا بُدَّ أن يردَّها لك بأحسن منها ، بل ويُضاعفها لك أضعافاً كثيرة بما يفوق الحَصْر والعَدَّ ، ومثَّلْنا لذلك بالحبة يزرعها الفلاح ، فتُعطى سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، فإذا كان هذا عطاء الأرض المخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق عز وجل ؟

فقوله تعالى : ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ (٣٩)﴾[سبأ] يريد سبحانه أنْ يُطمئن الغنىَّ بأن ماله لن ينقص ، ويُطمئن الفقير بأنه لن يتخلَّى عنه ، ولن يتركه للفقر ، بدليل أنه سبحانه اقترض من أجله ، فقال تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (٢٤٥)﴾ [البقرة] فالله يقترض من الخَلْق للخَلْق ، وهو قادر سبحانه أن يُوسِّع على الجميع ، إنما الهدف أنْ يتعايش الناس بوداد المعونة ، وأنْ يحب الغنىُّ الفقيرَ ، ولا يحقد الفقير على الغنى .

لذلك تُختم الآية بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)﴾[سبأ] قال سبحانه خير الرازقين ؛ لأن الرازق : كل مَنْ يمدُّ لك يده بما تنتفع به، وعليه فأبوك بالنسبة لك رازق ، والذى يعولك ويتكفَّل بك رازق ، كذلك ربُّك عز وجل رازق ، لكن فَرْق بينهما ، فأبوك رازق ؛ لأنه يأتى لك بالرزق ، لكن إنْ سألته من أين هذا الرزق يقول : من عند الله ، فهو سبب ومناول ، أما الحق سبحانه فهو خالق الرزق ؛ لذلك قال ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)﴾ [سبأ]

وسبق أنْ أوضحنا : إذا رأيتَ صفة مشتركة بين الخَلْق والخالق فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، فلكلٍّ ما يناسبه . إذن : حيثية الخيرية هنا أنه تعالى هو الرازق ، وهو خالق الرزق ، وهو الذى يُيسِّر لك أسبابه حتى يصل إليك .

وقالوا : خيرية الله فى الرزق ناشئة من ثلاث مسائل : **الأولى** : أنه سبحانه لا يُؤجِّل الرزق لوقت الحاجة إليه ، إنما خلقه لك قبل أنْ يخلقك ، وأعدَّ لك مُقوِّمات الحياة قبل أنْ يستدعيك إليها . **الثانية** : أنه لا يحاسبك على ما رزقك . **الثالثة** : لا يطلب منك ثواباً على ما وهبك .

لهذا كله كان الحق سبحانه وما يزال خير الرازقين ، وتأمل مثلاً فرعون لما ربَّى موسى عليه السلام امتنَّ عليه ، فقال : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء]

والمعنى : كان ينبغى عليك يا موسى أنْ تُجاملنا ، وتحفظ جميلنا عليك ، وألاَّ تصادمنا هذا الصدام .

ومثل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾ [يونس]

وقوله تعالى : ﴿.. فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

فى هذه الآيات كلها ، الحق - تبارك وتعالى - راعَى مواهب الخَلْق وقدَّر حركتهم الإيجابية فى الحياة ؛ لذلك أثبتَ لهم صفة من صفاته وهى الخَلْق ، ومعنى الخَلْق إيجاد شىء لم يكُنْ موجوداً ، فالإنسان يُعَدُّ خالقاً حين يصنع من الرمل (الكريستال) مثلاً ، والحق سبحانه لا يضنّ عليه فيسميه خالقاً ، لكن إنْ كان الإنسان خالقاً ، فالحق - سبحانه وتعالى - أحسن الخالقين ، لماذا ؟

قالوا : حيثيات هذه الخيرية فى عملية الخَلْق من عدة وجوه : منها : **أولاً** : أن الإنسان يَخلق من مادة موجودة ، أما الخالق سبحانه فيخلق من لا شىء من العدم . **ثانياً** : صنعة الإنسان تظل على حالة واحدة ، فلا تنمو ولا تتكاثر ، أما خَلْق الله ففيه حياة ، فهو يتغذَّى وينمو ويتكاثر .. الخ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

المعنى : واذكر يوم يحشرهم جميعاً ، واليوم ظرف للحشر وللجمع يوم القيامة ، لكن لماذا يذكر رسول الله هذا اليوم ؟ قالوا : هنا إشارة لسيدنا رسول الله ﷺ أن الله لم يَنْسَه وما تركه ، ولا تخلى عنه ، بدليل أنه سينتقم له من أعدائه ومُكذِّبيه فى هذا اليوم ، وكأن الله يقول له : سترى ماذا سنفعل بهم ، كما قال سبحانه فى آخر المطففين : ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين]

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَٰؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾[سبأ] معلوم أن الكفار عبدوا آلهة كثيرة ، فلماذا خَصَّ الملائكة هنا بهذا السؤال ؟ قالوا : لأنهم أعلى الأجناس التى عُبِدَتْ من دون الله وأقربهم إلى الله ؛ لذلك قالوا عنهم : بنات الله ، فهم يظنون أنَّ الملائكة لهم كلمة عند الله ، ويمكن أنْ يشفعوا لهم أو يدافعوا عنهم إنْ عبدوهم ؛ لذلك ذكر هنا الملائكة ، ولم يذكر الشجر والحجر الذى عُبِد من دونه سبحانه .

لكن ، لماذا وُجِّه السؤالُ للملائكة المعبودين ، ولم يُوجَّه للعابدين الذين أشركوا ؟ لماذا لم يُوبِّخهم الله ويُقرِّعهم على عبادتهم دون الله ؟ قالوا : لأن الحق سبحانه أراد أنْ يسمع المشركون من الملائكة أنفسهم الردّ ؛ لتكون الحجة عليهم أبلغ .

يقول سبحانه للملائكة : ﴿أَهَـٰؤُلاءِ (٤٠)﴾[سبأ] المشركون ﴿إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠)﴾[سبأ] فأول ردِّهم ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ (٤١)﴾ [سبأ] يعنى : تنزيه لك يا رب أنْ يُعبد سواك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم (٤١)﴾ [سبأ] يعنى : نحن فى ذُلِّية عبوديتنا لك يا رب أعزُّ وأكرم من كونهم يعبدوننا ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ (٤١)﴾ [سبأ] يعنى : ما عبدونا ، إنما عبدوا الجن ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١)﴾ [سبأ] فلماذا عبدوا الجن[1]؟ ولماذا كان أكثرهم يؤمن بالجن ؟

الجن هو الجنس الذى يقابل الإنس ، وسُمِّى الجن ؛ لأنه مستور عنَّا ، يرانا ونحن لا نراه ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ (٢٧)﴾ [الأعراف]

والذين عبدوا الجن لم يعبدوهم جميعاً ، إنما عبدوا الشياطين منهم ، وعبدوهم لأنهم يطيعونهم ، وأكثرهم كانوا بالجن مؤمنين ، لماذا ؟ لأن الجن كانوا يَسْترقون السمع ، فيلتقطون بعض الأخبار والحقائق ، ثم يُوحُونها إلى أوليائهم من شياطين الإنس فيأخذها هؤلاء ويخبرون الناس بها على سبيل أنهم يعلمون الغيب ، إلا أنهم كانوا يدسُّون فى هذه الحقائق الكثير من الباطل ، ثم تأتى بعض الأحداث موافقة لما أخبروا به ، فيُفْتَن الناس بهم ، ويظنون أنهم يعلمون الغيب .

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٥٥٧٩/٨) « أن حيّاً يقال لهم بنو مُليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن ، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم ، وأنهم ملائكة ، وأنهم بنات الله » ، ولكن أورد أبو يحيى زكريا الأنصارى سؤالاً فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» (ص ٣٤٥) « إن قلت : كيف قالت الملائكة فى حق المشركين ذلك ، مع أنه لم يُنقل عن أحد منهم أنه عبد الجن ؟ » ثم قال : « معناه أنهم كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به من عبادة غير الله تعالى . فالمراد بالجن الشياطين ، على أن الكرمانى جزم بأنهم عبدوا الجن أيضاً » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله سبحانه ﴿ فَالْيَوْمَ (٤٢) ﴾[سبأ] أى : يوم القيامة ﴿ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ (٤٢) ﴾[سبأ] أى : الملائكة ومَنْ عبدوهم من المشركين ﴿ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا .. (٤٢) ﴾ [سبأ] فإنْ كانوا يظنون أنهم الملائكة ، وأنهم عباد مُكْرمون ، وأن لهم منزلة عند الله ؛ لذلك سيشفعون لهم فأفهموهم : أنكم لا تشفعون إلا لمن ارتضى ولا تشفعون ابتداءً ، بل تنتظرون أنْ يُؤذَن لكم فى الشفاعة ، ثم أنتم أيها الملائكة تستحُونَ أنْ تكونوا شفعاء لمن عبد غير الله ؛ لأن إخلاصكم فى عبوديتكم لله تعالى يمنعكم أنْ تناصروا هؤلاء أو تشفعوا لهم .

ومثل هذا الموقف شاهدناه مع سيدنا رسول الله ﷺ ، حيث كان الذين آمنوا بالله وكفروا برسالته مُقدَّمون عنده على مَنْ كفروا بالله ، فعصبية محمد ﷺ لربه أكثر من عصبيته لنفسه .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾[سبأ] هذه الآية من المواضع التى وقف أمامها المستشرقون يظنون أن بها مأخذاً على كلام الله ، قالوا : القرآن يقول فى سبأ ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾ [سبأ] ويقول فى السجدة : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) ﴾ [السجدة]

فهل كذَّب الكفار بالنار ، أم كذَّبوا بالعذاب ؟ ونقول : منهم مَنْ كان يُكذِّب بوجود النار أصلاً ، وهؤلاء قال الله لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ

الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)﴾ [سبأ] لأن تكذيبهم مُنصَبٌّ على النار ، والاسم الموصول (التى) يعود إلى النار .

أما الذين آمنوا بوجود النار ، لكن ينكرون أنْ يُعذَّبوا بها قال الله لهم ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)﴾ [السجدة] لأن تكذيبهم للعذاب لا للنار ؛ لذلك جاء الاسم الموصول (الذى) العائد إلى العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣)﴾

معنى ﴿يَصُدَّكُمْ (٤٣)﴾ [سبأ] : أى : يصرفكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ (٤٣)﴾ [سبأ] وهذا دليل على أن عبادتهم ما دون الله كان مجرد تقليد للآباء ، وهم بقولهم هذا لم يأتوا بجديد ، فقد أخبر الله عنهم بهذا ، وهم ما يزالون فى عالم الذرِّ يوم أخذ عليهم العهد والميثاق :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف]

بعد أنْ قالوا فى رسول الله قالوا فى القرآن : ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى (٤٣)﴾ [سبأ] الإفك : قَلْب الشىء عن موضعه أو قلب الحقائق ، ومن هنا سُمِّى الكذب إفكاً ؛ لأن الكذب أنْ تقول قضية يناقضها

الواقع ، والصدق أنْ تقول قضية يؤيدها الواقع ، فحين تقلب الحقيقة فإنك تُغيِّر الواقع .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم] فالمؤتفكة هى القرى التى قلبها الله ، وجعل عاليها سافلها ، ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) ﴾ [الأنعام] يعنى : كيف تُصرفون عن الحق، وتقلبونه إلى الباطل .

ولَيْتهم وقفوا فى وصف القرآن عند هذا الوصف ، إنما زادوا ﴿ مُّفْتَرًى (٤٣) ﴾ [سبأ] أى : متعمد .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) ﴾[سبأ] معنى ﴿ إِنْ هَٰذَا (٤٣) ﴾ [سبأ] ما هذا الذى جاء به محمد ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) ﴾[سبأ] وعجيب أنْ يصفوا ما جاء به محمد بالسحر ؛ لأن السحر تخييل لأعين الناس ، وليس ما يفعله الساحر حقيقة ، إنما هو توهم ؛ لذلك قُلْنا : هناك فَرْق بين السحر الذى جاء به السحرة وعصا موسى عليه السلام .

كان سحرهم كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ (١١٦) ﴾ [الأعراف] وقال ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه] مجرد تخيُّلات لا حقيقة . إنما لَمَّا ألقى موسى عصاه صارت حيَّة حقيقية ، ولو لم تنقلب حية حقيقية ما خاف منها موسى ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) ﴾ [طه]

ولو لم تكن حية حقيقية ما آمن لموسى كبار السحرة ، فالقرآن يحكى عنهم أنهم بمجرد رؤيتهم لها قالوا : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ [طه] يعنى المسألة ليست من موسى ، إنما من الله .

إذن : فأين ما جاء به محمد من السحر ؟ وإذا كان محمد ساحراً

سحر المؤمنين به كما تقولون ، فلماذا لم يسحركم أيضاً وتنتهى هذه المسألة ؟ ومعلوم أنه لا خيار للمسحور مع الساحر . إذن : هذا القول منهم كذب على سيدنا رسول الله وعناد ومكابرة لعدم قبول الحق الذى جاء به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

كأن الحق سبحانه يسأل : من أين جاءوا بهذا الكلام ، وبهذه الاتهامات ، هل آتيناهم كُتباً يدرسونها ، ويعلمون منها ذلك ؟

ويجيب سبحانه ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴿٤٤﴾ ﴾[سبأ] كذلك ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾[سبأ] يعنى : رسول يخبرهم بهذا . إذن : من أين جاءوا به ؟

يقول سبحانه :

﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

المعنى : أن ما قالوه فى رسول الله ، وفيما جاء به من الهدى تكذيب كما كذَّب السابقون ، فهو سنة مُتبعة وطبيعة فى المرسَل إليهم حين يأتى دين جديد ليُخرجهم عن طغيانهم واستبدادهم ويقضى على سيادتهم واستعبادهم للناس ؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يصادموا الدين ويُكذِّبوا الرسل ، لتظلَّ لهم وسائل الطغيان ووسائل الفساد .

فمعنى ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (٤٥) ﴾[سبأ] الأمم السابقة الذين كذَّبوا إخوانك الرسل السابقين ، فلستَ يا محمد بدْعاً فى ذلك .

﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ (٤٥) ﴾[سبأ] يعنى : الأمم السابقة التى كذَّبت رسلها ما بلغتْ فى الرسالة وفى المنهج والحجة والبينة معشار ما آتيناك ؛ ذلك لأن سيدنا رسول الله ﷺ جاء بالدين الوافى والمنهج الكامل الذى لا يمكن الاستدراك عليه .

أو : أن المعنى ﴿ وَمَا بَلَغُوا (٤٥) ﴾[سبأ] أى : كفار مكة الذين كذَّبوا رسول الله ﴿ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ (٤٥) ﴾[سبأ] يعنى : ما آتينا الأمم السابقة من القوة ، فالذين كذَّبوا الرسل من الأمم السابقة كانوا أكثر قوة ، وأكثر نفوذاً ، وأكثر حضارة من كفار مكة ، وأين هم من عاد وثمود وفرعون ؟

واقرأ قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) ﴾ [الفجر]

فأين قوة كفار قريش من قوة هؤلاء الذين يُضرب بهم المثل فى : القوة ، والبطش ، والجبروت ، والطغيان ؟ ومع ذلك أصابهم من بأس الله ما أصابهم .

والمعشار أكثر من العشير ، والعشير أكثر من العُشْر ، فإذا أردتَ العشرات تقول عُشر ، وإذا أردت المئات تقول عَشير ، وإذا أردتَ الآلاف تقول معشار[1] .

---

(١) مقصد فضيلة الإمام - رحمه الله - أن العُشْر جزء من عشرة ، أما العشير فهو جزء من مئة ، أما المعشار فهو جزء من الألف . فمراد الآية ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ (٤٥) ﴾ [سبأ] أى : ما بلغوا جزءاً من ألف جزء مما أعطيناه وآتيناه للأمم السابقة ، فالمراد به المبالغة فى التقليل . وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٥٥٨١/٨) ونقله عن الماوردى . [عادل أبو المعاطى] .

وقوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥)﴾[سبأ] يعنى : انظر كيف كان أخْذى للمكذِّبين ، فلم أتركهم دون عقاب ، إنما أخذتهم أَخْذ عزيز مقتدر ، ومعنى ﴿نَكِيرِ (٤٥)﴾[سبأ] يعنى : إنكارى عليهم بالتدمير والعقاب ، وإنكارى عليهم على قَدْر ما كانوا هم منكرين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾

بعد أنْ أعطاهم الحق سبحانه درساً وعبرة بمَنْ سبقهم من المكذبين يعود ليخاطبهم من جديد ، فيقول لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ يعنى : لهم ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ (٤٦)﴾ [سبأ] الوعظ ليس إنشاءَ حكم ، إنما هو تذكير بحكم سبق ونسيه الناس ، فالواعظ يُبيِّن للناس أموراً يعرفونها ويؤمنون بها من الدين ، لكن أنْستهم الشهوات والغفلة هذه الأمور ، فهو مُذكِّر بها ، والعظَة لا تكون إلا من مُحبٍّ لك حريص على مصلحتك .

لذلك فالحق - تبارك وتعالى - يعطينا نموذجاً للوعظ فى قصة لقمان حين يعظ ولده : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ .. (١٣)﴾ [لقمان]

ومعنى ﴿بِوَاحِدَةٍ (٤٦)﴾ [سبأ] يعنى : موعظة واحدة فيها كل الآحاد ، واستخدم السياق ﴿إِنَّمَا (٤٦)﴾ [سبأ] الدالة على القصر يعنى : لا أعظكم إلا بواحدة ، ما هى ؟ ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ (٤٦)﴾ [سبأ] يعنى : إياك

أنْ تقوم لشهوة نفسك ، أو لسيادة تحافظ عليها ، إياك أنْ تقوم وأنت تريد الاستعلاء على هذا النبى ، إنما يكون قيامك لله ، يعنى : تتجرد عن هواك ، وتتجرَّد عن شهواتك وعن تعصُّبك .

وما دُمْتَ تتودد إليهم أنْ يقوموا لله فلا بُدَّ أن لله تعالى مكانة فى قلوبهم ، وهو سبحانه فى بالهم بدليل : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ (٢٥)﴾ [لقمان]

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧)﴾ [الزخرف]

إذن : كانوا يؤمنون بأن الله تعالى هو خالقهم ، وهو خالق السموات والأرض ؛ لأن هذه المسألة من الوضوح بحيث لا ينكرها منكر ، مهما بلغ من الكفر والإلحاد ، لماذا ؟

لأن مسألة الخَلْق لم يدَّعها أحد لنفسه ؛ لأن الدعوى إنما تكون عند وقوع لبس بباطل يمكن أن يكون له رواج ، لكن هذه المسألة واضحة ، لا لَبْسَ فيها ، ومهما بحثوا فلن يجدوا خالقاً لهم وللكون من حولهم إلا الله ؛ لذلك يجادلهم بالمنطق فى هذه المسألة فيقول : أنتم أمام أمرين : إما أنكم خلقتم هذا الخَلْق ، أو أنكم خُلِقْتم من غير خالق .

فالأولى مردودة ؛ لأن أحداً لم يَدَّع الخَلْق ، والأخرى مردودة ؛ لأن أتفه من السماء والأرض ، وأتفه من الإنسان لا بُدَّ له من صانع يصنعه ، فالحذاء الذى تلبسه فى قدميك ، أليس له صانع ؟

إذن : السماء والأرض والإنسان لا بُدَّ أن لهم صانعاً على قدر عظمهم ، وكيف ينكرون هذه المسألة وهم يعترفون بعضهم لبعض بأبسط الأمور ، ويعرفون صاحبها ويفخرون به ، ففلان كان يئد البنات ، وفلان كان عنده جفنة طعام يأكل منها كذا وكذا من

الضِّيفان ، وفلان كان أشجع العرب .. إلخ وكَثُر في شعرهم قولهم : أنا ابن فلان ، وأنا ابن فلان .

إذن : مسألة الخَلْق هذه لا يجرؤ أحد منهم على أنْ ينكرها ، وما داموا يعترفون لله تعالى بالخَلْق ، فعليهم أنْ يقوموا لهذا الإله الذى أقروا له بالخلق ، وأنْ يُخلصوا فى قيامهم له ، فلا يكون فى بالهم أحد سواه ، وعندها ثِقُوا تماماً أنكم ستصلون بهذا القيام إلى الحق ؛ لأنه لا يُضَبِّبُ الحق فى عقول الباحثين فيه إلا هوى النفس ، كما قال سبحانه :

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ (٧١)﴾ [المؤمنون]

والقيام المراد هنا لا يشترط فيه الجماعة ولا الجماهيرية ؛ لأنه قيام للتفكُّر ، فينبغى أنْ يكون ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ..(٤٦)﴾ [سبأ] مثنى : يعنى : اثنين اثنين ، وفرادى : واحداً واحداً . بحيث يختلى كُلٌّ مع نفسه ليفكر فى أمر محمد بواقعية وتجرُّد : كيف كان بينكم ، وكيف كانت سيرته وأخلاقه ، وهل جرَّبتم عليه كذباً ، أو سحراً ، أو كهانة ؟ وهل سبق له أنْ ادَّعَى ما ليس له ؟ هل رأيتم عليه قبل بعثته علامة من علامات الجنون ؟ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ (٤٦)﴾ [سبأ]

وهذا التفكُّر فى حال رسول الله يحتاج إلى موضوعية ؛ لذلك اختار أنْ ينفردوا به ، إما مثنى مثنى ، وإما فرادى ، فالإنسان حين يكون بمفرده ، فلا يوجد له نظير ينهزم أمامه ، ولا نظير يهيجه على غير الحق ، فرأيه فى هذه الحالة يكون أقرب للصواب .

والمنفرد إنْ تفكَّر وصل إلى الحق ؛ لأنه لن يغشَّ نفسه ، ولن يخدعها ، ولن يستكبر أنْ يعود للحق ، أما إن كانوا جماعة فلا بُدَّ أن يحاول كل منهم أنْ يثبت حجته ، ولو اضطر للكذب وللخداع كما

نراهم فى مثل هذه المواقف ، كُلٌّ يحلف أنه على الحق وغيره على الباطل .

فكأن الحق بهذه الطريقة فى التفكير يحمينا ويعصمنا من غوغائية الجماهيرية فى الحكم ، هذه الغوغائية التى نشاهدها مثلاً فى المظاهرات ، حيث يهتف كُلٌّ بما يريد ، فتختلط الأصوات ، وتتداخل الهتافات ، فلا تستطيع أنْ تميزها .

لذلك لما تكلم شوقى رحمه الله عن موقعة (اكتيوم) بين كليوباترا وخصومها وقد هُزِمَتْ فيها ، إلا أن أبواقهم صوَّرَتْ الهزيمة على أنها نصر ، وأخذتْ الجماهير الغوغائية تُردِّد ما يقولون ، فقال شوقى :

اسْمعِ الشعْبَ دُيُونُ .·. كَيْفَ يُوحُون إليْه
مَلأَ الجوَّ هتَافاً .·. بحياتَىْ قَاتلَيْه
أَثَّر البهتانُ فيه .·. وانطَلى الزُّور عليْه
يَا لَهُ من بَبْغاء .·. عقلُه فى أُذُنيْه!!

فالحق يُعلِّمنا كيفية التفكُّر مثنى أو فرادى ، ويحمينا من الغوغائية .

وهذه المسألة تأخذنا إلى اعتراض المستشرقين على قوله تعالى :

﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء]

ووجه اعتراضهم : إذا كان الله تعالى يمتنُّ علينا بعلم ما نكتم ، فما الميزة فى علم الجهر ، وكلنا يعلم الجهر ؟ ونقول : الخطاب هنا للجماعة ، فالحق سبحانه يعلم ما تكتمون جميعاً وما تعلنون ، إنِ اختلطت أصواتكم وتداخلت فهو يعلمها ، ويرد كلَّ صوتٍ إلى

صاحبه ، وعِلْم الجهر المختلط أعظم من علم المكتوم ؛ لأن المكتوم يمكن أنْ تكونَ له أمارات تدل عليه ، أمّا علم الجهر المختلط ، فيصعب أنْ تُميِّز بعضه من بعض .

كذلك إنْ كانوا مثنى مثنى ، فالاثنان كما نقول : الرأى والرأى الآخر ، ولو انهزم أحدهما أمام الآخر فهزيمته مستورة ؛ لذلك دائماً ما نسمع من يقول لخصمه : أريد أن أجلس أنا وأنت على انفراد . لأنكما طرفا المسألة ولا يوجد طرف ثالث يُسبِّب لواحد منكما إحراجاً ، أو إذلالاً ، يتسبب فى تغيُّر مسلكك أمامه .

ومعنى ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ (٤٦)﴾ [سبأ] ليس القيام الذى يقابله القعود ، إنما مَنْ قام بالأمر يعنى : فعله وأدَّاه ، وإنْ كان قاعداً ، ومن ذلك نقول : فلان يقوم بأمر فلان ، أو فلان يؤدى وظيفة فلان . أى : يقوم بها .

ومعنى ﴿مَا بِصَاحِبِكُم (٤٦)﴾ [سبأ] يعنى : رسول الله ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ (٤٦)﴾ [سبأ] جنون ؛ لأنهم قالوا على رسول الله أنه مجنون ، وعجيب منهم وهم أعرف الناس به ، أنْ يصفوه بالجنون ، وهم لم يَروْا عليه علامة من علامات الجنون ، ولم يصنع شيئاً مخالفاً لمجتمعه الذى عاش فيه ، بل كانوا قبل البعثة يقولون عنه : الصادق الأمين ، فكما ظهر كذبهم فى قولهم (ساحر) ، كذلك ظهر كذبهم فى قولهم (مجنون) .

ولو خَلاَ الواحد منهم إلى نفسه ، ثم تفكّر فى شخص رسول الله لوصل بنفسه إلى الحق ، ولو أدار فى عقله هذه الاتهامات لوجد أن رسول الله ﷺ برىء منها ، وما دام منفرداً فى هذا التفكُّر ، فلن يخجل أبداً أنْ يعود إلى الحق ؛ لأنه لن ينهزم أمام أحد .

وقد تناول القرآن الكريم كل افتراءاتهم على رسول الله ، وأظهر بطلانها ، فقال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢)﴾ [الحاقة]

وقال : ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢)﴾ [التكوير]

والحق - سبحانه وتعالى - هنا لم يذكر لنا نتيجة التفكُّر والبحث مثنى وفرادى ؛ لأنه معلوم وواضح ، إلا أنه قال عنه ﷺ : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾ [سبأ]

شيء آخر : هل آمن الناس كلهم برسول الله بعد أن سمعوا منه قرآناً مُعْجزاً لنقول : إن القرآن هو المعجزة التى تثبت صدْق الرسول؟ نقول : لا ، إنما منهم مَنْ لم يؤمن بعد أن سمع القرآن ، ومنهم مَنْ آمن قبل نزول القرآن ، وبمجرد أنْ قال محمد : إنى رسول الله . وأولهم السيدة خديجة ، والصِّدِّيق أبو بكر ، فما حيثية إيمانهم برسول الله ؟ وما المعجزة التى عرفوا بها صدْقه ؟ حيثيته ومعجزته عند هؤلاء سيرته ﷺ فيهم أولاً ، فهى كافيةٌ لأنْ يؤمنوا به إنْ قال : أنا رسول الله إليكم . أما القرآن فهو معجزة وتحدٍّ لمن جحد .

لذلك نرى سيدنا رسول الله يُذكِّر قومه بهذه السيرة بينهم ويتخذها حجة له ، فلما بُعث صعد إلى الصفا ، ونادى فى القوم ، فلما اجتمعوا حوله قال : « أرأيتم لو حدثتكم أن خيلاً وراء هذا الوادى جاءت لتُغير عليكم ، أكنتم مُصَدِّقى ؟ » قالوا : ما جرَّبنا عليك منْ كذب ، فقال : « أنا رسول الله إليكم » فقالوا لتَوِّهم : أنت كذاب تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟[1] .

---

(١) عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا (جبل بمكة) فاجتمعوا إليه . قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصدقى ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . قال أبو لهب : تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا ؟ فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ [المسد] . أخرجه أحمد فى مسنده (١/٣٠٧) ، ومسلم فى صحيحه (٣٥٥) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٨/٧٣٨ - فتح البارى) .

ورُوى فى إسلام سيدنا عبد الله بن سلام ، وكان أحد أحبار اليهود أنه لما اطمأنَّ قلبه للإيمان بعد ما رأى من أوصاف رسول الله التى ذُكرت فى كتبهم ، وتأكَّد أنه رسول الله ذهب إليه وقال : يا رسول الله لقد شرح الله صدرى للإيمان ، وتعلم يا رسول الله أن اليهود قوم بُهْتٌ ، فإذا أسلمتُ قالوا فىَّ ما ليس فىَّ ، فادْعُهُمْ يا رسول الله ، واسألهم عنى ، وسوف أعلن إسلامى أمامهم بعد أنْ تسمع رأيهم فىَّ ، وفعلاً دعاهم سيدنا رسول الله وسألهم : ما تقولون فى ابن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحَبْرنا وابن حَبْرنا ، وجمعوا له كل أوصاف المدح ، عندها قال ابن سلام : أما وقد قالوا فىَّ ما قالوا : أشهد أنك رسول الله ، فقالوا : بل أنت شرُّنا وابن شرِّنا[1] .

فقال : ألم أَقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت ؟

وتلحظ أن الذين صادموا رسول الله فى أول البعثة ، والذين اتهموه بالكذب من أهله وأقرب الناس إليه ، وعمه هو الذى قال له : تباً لك ألهذا جمعتنا ؟ وهنا موطن حكمة وحجة فى بعثة سيدنا رسول الله ، جعلها الله ليعلم الناس أن مكانة قريش وسيادتها فى الجزيرة العربية لم تكن هى التى صنعت رسالة محمد ليسودوا بها العالم ، فأعدى أعدائه كانوا من قريش ، ولم يجد رسول الله نُصْرة فى مكة ، إنما كانت نصرته فى يثرب .

لذلك سبق أن قلنا : إن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٨/١٦٥ - فتح البارى) والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٢٧ - ٥٢٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وفى بعض ألفاظ الحديث أنهم قالوا أولاً : « ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا » وفى لفظ آخر : « خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا »

لمحمد ، لا أن العصبية لمحمد هى التى خلقتْ الإيمان به ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

الأجر : هو الجُعل مقابل عمل ، وهذه العبارة قالها كل الرسل ، فقد علَّمهم الله أنْ يقول الواحد منهم لقومه : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء] كأنه فى طىّ هذا الأسلوب ، أنه لو كان هناك تقييم منصف لكنتُ أستحق أجراً على رسالتى ودعوتى ؛ لأننى أجلب لكم بالهداية نفعاً كبيراً ؛ لأنه ليس صفقة فى هذه الدنيا الفانية ، إنما نفعاً باقياً فى حياة خالدة باقية .

لكن الواقع أننى لا آخذ أجرى منكم ، إنما آخذه من الله ؛ لأن العمل الذى أقوم به أكبر من أنْ تُقوِّموه بثمن ، والحق - سبحانه وتعالى - هو الذى يُقوِّم عملى ، وأنا واثق أنه سبحانه سيعطينى ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سبأ]

ومعنى : ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : إنْ كنتُ أخذتُ منكم أجراً ، فسوف أعمل لكم بهذا الأجر ، أو سيعود جزاؤه عليكم .

وسبق أنْ قلنا : إن كل الرسل قالوا هذه العبارة إلا رسولين اثنين لم تَأْت هذه العبارة فى سياق كَلامهما ، هما : سيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى عليهما السلام ، مما يدل على أن هذه المسألة مبنية بحكمة كبيرة عالية ، فلماذا إبراهيم وموسى بالذات من بين كل الرسل؟

قالوا : لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام أول ما واجه المخالفين واجههم فى عمه[1] ، فلما صادمه عمه ، ورفض دعوته اعتزله ، واكتفى بأن يدعو له ، وليس من المعقول أنْ ينتظر أجراً من عمه ؛ لذلك لم تأْتِ فى كلامه مسألة الأجر هذه .

كذلك موسى - عليه السلام - كانت أول دعوته لفرعون ، الذى قال له : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء] يعنى : إنْ كان يستحق أجراً على دعوته لفرعون ، فسوف يستحى أن يطلب منه الأجر ، وقد تربَّى فى بيته ، وفى رعايته .

وكلمة ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴿٤٧﴾﴾[سبأ] تحتمل معنيين : أننى أخذتُ أجراً وأعطيته لكم ، أو أنا من الأصل لم أسألكم أجراً ، ثم تختم الآية بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾[سبأ] يعنى شاهد علينا جميعاً ، ويعلم ما قاسيته فى سبيل دعوتكم إلى الحق ، ويعلم ما فعلتموه معى من عناد وتعنُّت ، وهو سبحانه سيُغلى أجرى على قدر معاناتى وما تحملتُه فى سبيل هدايتكم ، والأخذ بأيديكم إلى ساحته .

وإذا كان الإنسان إنْ عمل عملاً لا بُدَّ أنْ يكون له حَظٌّ منه ومَغْنم ومنفعة ، فرسول الله لم يسألكم حتى الأجر على العمل ، فبأىِّ شىء تتهمونه بعد ذلك ؟

---

(١) يذهب فضيلة الشيخ رحمه الله إلى أن آزر هو عم إبراهيم عليه السلام وليس أباه . وقد اختلف فى اسم أبى إبراهيم ، فالنسابون والمفسرون على أن اسم أبيه « تارح » وبعضهم قال « تارخ » . وبعضهم قال : إنهما اسمان له كما لكثير من الناس وكما كان ليعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً . والبعض قال : إن تارح اسم وآزر لقب . وقيل : إن آزر هو اسم للصنم الذى كانوا يعبدونه . انظر تفسير القرطبى (٣/ ٢٥٤٤) ، وابن كثير فى تفسيره (٢/١٤٩) ، وقصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠٤) ، ولسان العرب (مادة أزر) ، وقصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار (ص ٩٢ - ٩٦) .

بعد ذلك أراد الحق سبحـانه أنْ يُوضِّح لنا أمراً يتعلق بالحق الذى جاء به رسول الله ، فالكفار كانوا يعترضون على شخص رسول الله ، بدليل قولهم :﴿ ءَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا .. (٨) ﴾ [ص]، وقالوا : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

فهم يـعترفـون بالقرآن ويعـلمون أنه ذِكْـر ، وأنه لا غبارَ عـليه ، المـشكلة أنه نزل على هذا الرجل بالذات ، ولم ينزل على واحـد منهم من عظماء القـوم ؛ لذلك أراد الحق سبحـانه أنْ يقول إن إنزال مناهج الله للأرض لا بُدَّ أنْ تنزل على مـصطفًى يصـطفيـه الله ، لا مـصطفًى يصطفيه الخَلْق ، فلا معنى لقولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

لذلك يردُّ الحق سبحانه عليهم بالحجة : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (٣٢) ﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

ورحمة الله هى مـا ينتفع به الناس ، إما فى الدنيـا ، وهذه رحمة تشمل المـؤمن والكافر ، وإمـا رحمة فى الآخـرة ، وهذه للمؤمن دون الكافـر ، وهذه الرحـمـة الأخروية دائمة باقـيـة فى نعـيم لا يفـوتك ولا تفوته ، فإذا كنتُ أقسم لكم أرزاقكم ومعيشتكم فى الحياة الدنيا ، فكيف أَكِلُ إليكـم اختـيـار مَنْ يرحـمكم فى الآخـرة ؟ هل أقـسم لكم الرحمة الموقوتة . وأترك لكم الرحمة الباقية ؟

ثم ينحو القـرآن معـهم منحًى آخر بعد أنْ وعظـهم وتودَّد إليهم ، فيقول سبحانه :

﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾

لك أنْ تلحظ هنا حدة الأسلوب ، خلافاً للآيات السابقة التى كانت تعظهم وتتودد إليهم ، وكأن الحق سبحانه يقول لهم : لا تظنّوا أننا سنظل نتودد إليكم ، أو أنكم الذين ستسيِّرون المراكب ، فالدين سيُظهره الله رغم عنادكم ، والحق سيعلو رغم كفركم .

فقال سبحانه : ﴿ قُلْ ﴾ أى : ردّاً عليهم ﴿ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴿٤٨﴾ ﴾[سبأ] فبعد أنْ أعطاكم الفرصة ، وبعد أنْ طال تمردكم ، فالآن ربى سيقذف بالحق ، كما قال سبحانه فى موضع آخر ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

والقذف : الرمى بشدة ، وهى كلمة تُوحى بالعنف والقوة ، إنْ جاءت من البشر ، فما بالك إنْ كان القذف من الله ، والمقذوف من الله هو الحق ، والحق كما قلنا هو الشىء الثابت الذى لا يتغير .

والقذف لا بُدَّ أنْ له غرضاً وغاية ، ومَنْ أراد أنْ يقذف شيئاً عليه أنْ يُحدِّد المسافة لقريب أم لبعيد ، فإن كان لقريب فقلَّما يخطىء القاذفُ المقذوفَ ، وإنْ كان القذف لهدف بعيد فاحتمال الخطأ أكثر ، وهكذا كلما بَعُدَتْ المسافة ؛ لأن معنى القذف تحديد موضع لتصل القذيفةُ إليه ، وتصيب الغايةَ المقصودة منها .

وعندما يكون الموضع قريباً ، فالتغيرات التى ستطرأ عليه قليلة ؛ لأن زمن وصول القذيفة إليه قصير ، على خلاف الهدف إنْ كان بعيداً فهو عُرْضة لأنْ يتغير ، فتختلف مثلاً زاويته بسبب الريح ،

أو الأعاصير أو خلافه ؛ لذلك نحتاج فى هذه الحالة إلى أجهزة وحسابات دقيقة تحسب بُعْد الهدف وقوة المقذوف ، وقوة الريح أى : تتصادم معه وغير ذلك من حسابات السرعة والزمن ، كالذى يرمى الطير مثلاً وهو فى الهواء ، لا بُدَّ أنْ يغير نقطة التنشين لتناسب حركةَ واتجاه الطائر .

ولا أَقْدَر على هذه العملية من علاَّم الغيوب سبحانه ، الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ؛ لذلك جاء الحق سبحانه بالصفة التى تناسب الدقة فى هذه العملية ، فقال : ﴿قُلْ إنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨)﴾[سبأ] ، فهو سبحانه أولاً يقذف بالحق ، وقذيفته سبحانه لا تخطىء هدفاً ؛ لأنه تعالى علاَّم الغيوب .

والحق الذى يقذف الله به هو المنهج الذى أنزله من السماء يقذفه لغاية وهى الرسالة ، كما قال سبحانه : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

إذن : القاذف هو الله ، والمقذوف الحق ، وهو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، والغاية المقصودة هى وصول الرسالة إلى مَن اختاره الله لها ، وهذه العملية لا تخطىء ؛ لأن القاذف عالم بكلِّ غيب يؤثر على مسار المقذوف ، فالحق لا بُدَّ أنْ يصل إلى صاحبه المختار له والمصطفى لحمله ، لا إلى سواه .

لذلك هذه الآية تردُّ على هؤلاء الذين يقولون : إن الرسالة أو الوحى أخطأ ، فنزل على محمد بدل أنْ ينزل على فلان(١) ، فهذا تخبُّط لا سند له .

(١) من هؤلاء طائفة من طوائف الشيعة ، وهم أصحاب العلباء بن ذراع الدوسى ، وكان يفضل علياً على النبى ﷺ ، وزعم أن محمداً بُعِث ليدعو إلى على فدعا إلى نفسه (الملل والنحل للشهرستانى ٢/ ١٧٥).

وكلمة ﴿الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾[سبأ] هنا تدل على كثرة المؤثرات التى يمكن أن تعترض القذيفة ، فتحُول بينها وبين هدفها ، وهذه المؤثرات لا يعلمها إلا الله .

فإنْ قلت : الفعل يقذف جاء فى صيغة المضارع الدال على الحال والاستقبال ، يعنى : أن الحق سبحانه عمله أنه يقذف بالحق إلى الرسل ، فهل قذفه إلى رسول الله ؟

تأتى الإجابة فى قوله تعالى فى الآية بعدها :

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ .. ﴿٤٩﴾﴾[سبأ] يعنى : قذفه بالفعل فى صورة القرآن الذى نزل على محمد الذى اختاره الله للرسالة ولحمل منهجه إلى خَلْقه لينظم به حركة حياتهم ، وإذا كان الحق الواضح الثابت قد جاء وظهر ، والذى قذفه علام الغيوب ، فما موقف الباطل المقابل له ؟ لا بُدَّ أنه يتراجع ، ولا يستطيع الصمود أمام قوة الحق .

﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾[سبأ] فلا يبدىء فى الأولى ، ولا يعيد فى الأخرى ، يعنى : كما نقول : لا فى العير ولا فى النفير (لا يهش ولا ينش) ، هذا إذا كان للباطل وجود أو ثبات ، إنما الباطل ما هو إلا خيال بعيد فى أذهان أصحابه لا وجودَ له .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا صورة حسِّية للحق والباطل، فيقول سبحانه : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ..﴿١٧﴾﴾[الرعد] يعنى : كل وادٍ يحوى من الماء على قدر اتساعه ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴿١٧﴾﴾[الرعد]

والزَّبَد هو القشّ والفتات الذى يحمله الماء ، وهو تافه لا نفعَ فيه ، يأتى الهواء فيزيحه هنا وهناك ، وتبقى صفحة الماء نقية لينتفع الناس به .